



يمكن اعتبار عام 2014 الأكثر دموية في مسار العنف الذي استخدمه النظام ضد الثورة والشعب في سوريا.

وعلى الرغم من أن الأعوام التي سبقته لم تكن أقل هولاً، وخصوصاً 2013 الذي شهد إقدام النظام على استخدام الأسلحة الكيماوية ضد المدنيين في غوطتي دمشق، فإن العام المنصرم كان الأكثر جنوناً وتوحشاً وبربرية بحق المدنيين العزل، حيث وصل عدد غارات القتل والتروع البرمائية، في بعض الأيام، إلى أكثر من عشرين غارة على مناطق متفرقة، تمتد من دير الزور، مروراً بالرقة وحلب وحماء وريف دمشق، وصولاً إلى ريف درعا. وتجاوز عدد الضحايا من المدنيين في بعض الأيام 200 قتيل.

اتسم العام الذي انصرف بأن النظام السوري تصرف من دون رادع، في ظل صمت دولي وتغطية إيرانية روسية. ولذا، أطلق لنفسه العنوان، فأبان عن بربرية ليست معهودة، ولا مثيل لها في الحروب التي شهدتها القرنان الحالي والذي سبقه، وأهم مزايا هذه البربرية، أولاً تقتل المدنيين.

وتشير وقائع الغارات البرمائية على ريف حلب خصوصاً، أنها تعمّد استهداف التجمعات البشرية ذات الكثافة العالية، من أجل إلحاق أكبر أذى بالسكان، الأطفال والنساء والرجال والشيوخ، الأسواق والمساجد وأفران الخبز والمستشفيات، أي كل ما هو محروم في أخلاقيات الحروب بين الأعداء.

والمظهر الثاني للبربرية هو حصار التجويع ومنع دخول الغذاء والدواء، بما في ذلك قطع الماء والكهرباء والوقود عن بلدات بكمالها، مثل داريا والمعظمية في ريف دمشق، بالإضافة إلى الإعدامات الجماعية والسجون والاعتقالات وحالات الاغتصاب التي تعرّضت لها نساء سوريات، وهناك منظمات، مثل الشبكة السورية لحقوق الإنسان، وثقت حالات لا شبيه لها في

النزاعات الأهلية، حتى تلك التي حصلت بين القبائل البدائية من آكلي لحوم البشر في مجاهم أفريقيا. أما الوجه الثالث للبربرية فهو التهديم. وبالإضافة إلى نزعة القتل المتأصلة في الذين يقفون وراء قرارات الاستهداف المنهجي للمدنيين، هناك نزعة تدمير العمران، وهي لا تفرق بين مسجد وفرن خبز وسوق ومستشفى ومدرسة وموقع تراثية، الأمر الذي يكشف عن خلية همجية، لا تحترم قيمةً، ولا تقف عند رادع، وقد صار واضحًا أن النظام يتجاوز تنفيذ تهديد أطلقه، في الأيام الأولى للثورة، بأنه سيحول سوريا إلى تراب، وهذا ما حصل، حتى الآن، في بعض المدن التي تم تدمير معظمها، مثل دير الزور وحلب وحمص وريف دمشق.

يستحق العام 2014 أن يوصف، على الصعيد السوري، بعام عودة الوحش من الغابات. مأساة السوريين لا يمكن توصيفها لأنها تفوق الكلام، وتستعصي على الخيال، وليس من الإنفاق الاكتفاء بقوانين العدالة من أجل محاسبة هؤلاء القتلة في المستقبل، بل يجب أن يوضعوا في أقفاص، ويعرضوا في حدائق الحيوان، كنماذج لافتراضيين جدد، لم تعرف سلالة الوحش مثيلًا لهم.

وعلى العموم، لا يمكن تفسير استهتار النظام بأرواح السوريين وتاريخهم الحضاري العثماني وممتلكاتهم، إلا من منطلق الاحترار الذي مارسه بحقهم، طوال أربعة عقود من حكمه، وهو نتيجة تراكم موروث من الانحطاط والعنف، تربّت عليه أجيال النظام منذ مجازر حماه وحلب في مطلع ثمانينيات القرن الماضي.

بومها تمت تسوية أحياء سكانية كاملة فوق رؤوس ساكنيها في حماه. ومنذ ذلك الحين، صارت تربية أجهزة النظام قائمة على هذا الأساس، وأخر ما تفكّر به هو حياة الناس. ومهما كانت مآلات النزاع، ستتصبح هذه السلوكيات مجالاً خصباً للدراسات الاجتماعية والسلوكية. وبالتالي، لن تقف الدراسات عند الأساليب المتبعة في علوم النفسية المرضية، بل سوف تستدعي استنباط أساليب وطرائق جديدة، تذهب حتى ظروف انتقال هذه الحالة من الغابات إلى المدن.

العربي الجديد

المصادر: